وزارة الإعلام
الهيئة العامة للإستعلامات
القراءة للجميع
كتب الأطفال



حـرب الكـلاب

بقلم الدكتور: محمد ماهر قابيل
رسوم: مدحت عبدالسميع عامر

٢٠٠٧

سطعت الشمس حانيةً على الغابة تبعث الدفء في أوصال كائناتها . فما من حيوان أو طائرٍ أو حشرة أو نبتٍ إلا نال نصيبه الأوفى من ذلك الفيض الطبيعى السخّى . وتفرقت السحب مسرعةً كأنما تخشى أن تحجب هذا الخيَر عن المخلوقاتِ بتَجُمعها دونَه . وواصلت أمم تسبيحَها لخالقها تحمُده وتشكر له .

وتفرقت الكلاب كعادتها في أرجاءِ الغابة متنافرةً لا تلتقى إلا مصادفة ، ولا تأتلف متعاونة على مصلحة قط .

كان كل كلبٍ يعيش وحده ، ويسعى وحده ، ويكره كلَّ كلب .

وعلى خلاف الوفاء النادر الذى تتميز به الكلاب الأليفةً كانت كلاب الغابةً ضالةً شرسةً قاسيةً تميل الي العدوان، وتتصف بالغدر .

كانت ترتع فى الغابةِ حيثما شاءت ، تصيب
من الفضلاتِ والرممِ ، وتفترس ما تستطيع من





الفرائس المستضعفةِ ، وتبول حيث تشُرب ، وتنبح بسببٍ وبغير سببٍ ، وتتناحُر بلا مبررٍ ، ولا ترعى حرمةً ولا فضيلةً .

وكانت تردد دائما نشيدها قائلةً :

من أول الزمانِ

لآخر الزمان

في ذلك المكان

نمضى على الهوان

*

نعاشُر الذئاب

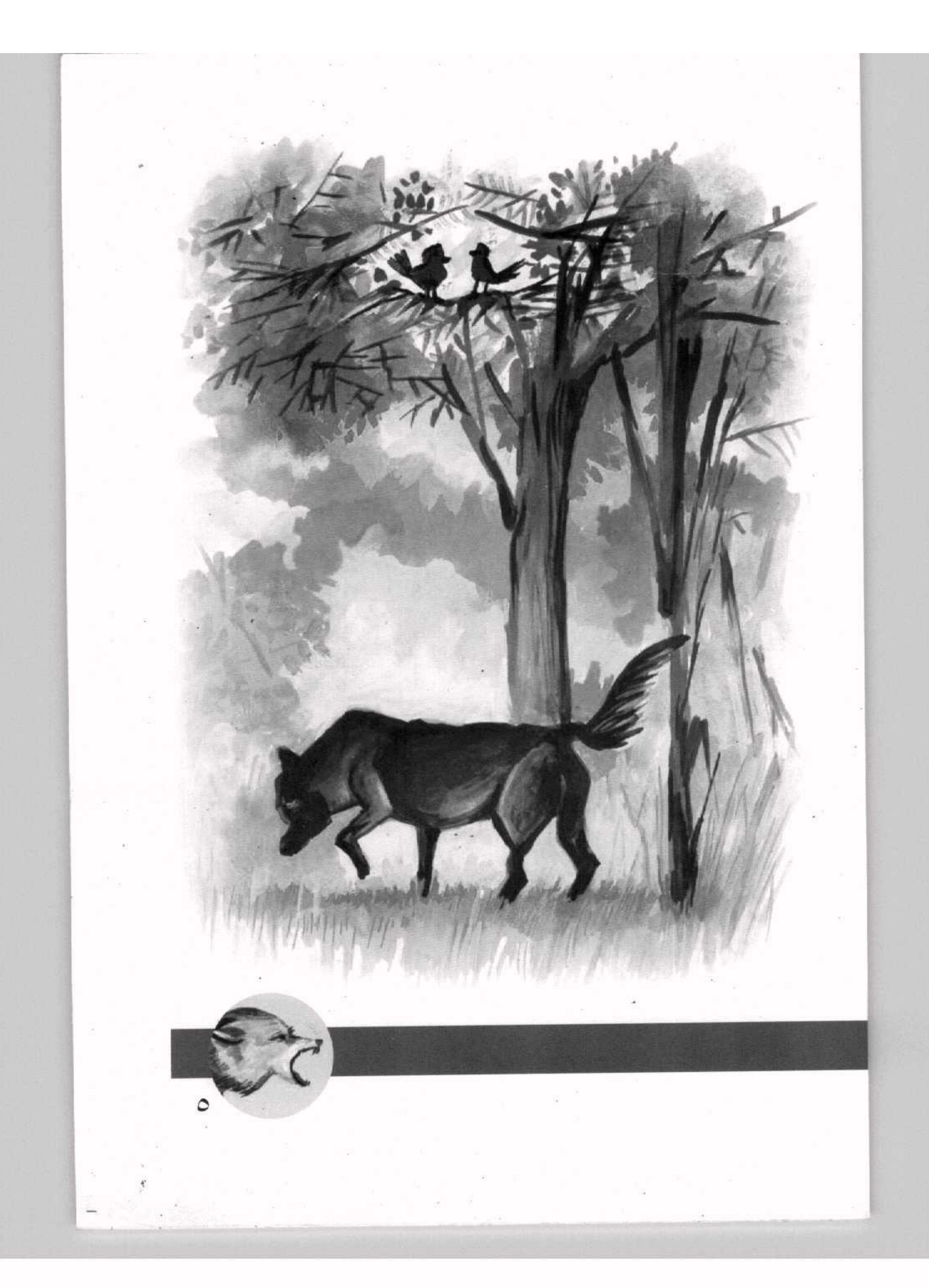
ونلبس العذاب

فمن من الكرام

يصاحب الكلاب

*

وعمرنا ضَياع



وكُلنا جِياع
نَهْوِى على الطعام
كأننا سباع

*

لا نعرف الصفاء
ولا نرى السماء
وننبذ الوئام
ونعشق الدماء .

*

نمشى بلا طريق
نحيا بلا صديق
وكيف نبتغيه
ونحن في حريق ؟

وكانت أصداء النشيد الحزين تتجاوب في الغابة فتبعث في جنباتها الكآبة والأسى .

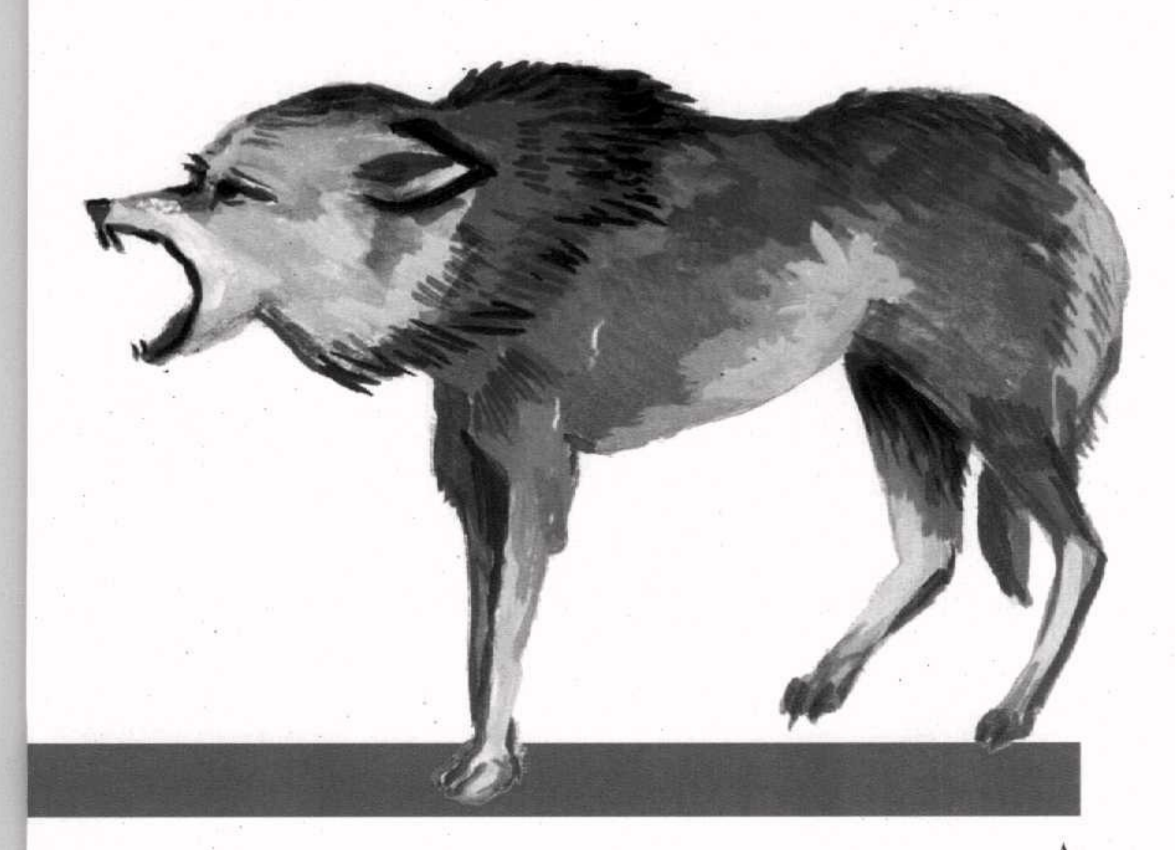


وعلى غصن دوحة باسقة قال العصفور مانى للعصفورة فيزا وهما يغردان في مرح :

- انظرى الى هذه الكلاب . انها لا تكُفّ عن الشجار في الليل والنهار .

ردت فيزا بقولها :

إنها تشتبك اشتباكاتٍ ثنائيةً أحيانا وجماعيةً أحيانا أخرى .



وسكتت فيزا لحظة ثم أردفت ساخرة تقول :

- لا ينقصها إلا الاشتباك الفردى . إننى لا أستبعد أن أشاهد ذات يوم كلباً يصارع ذاته.

قال مانى معقباً :

إن بعضها يَمرض بمرض رهيب اسمه السعار .

تساءلت فيزا بدهشة قائلة :

- السعار ما هو السعار؟

أجاب مانى في تؤدةِ العارف بقوله :

- داء خطير . ربما يكون أسوأ داء على الإطلاق . انه جنون فاتك لا ينتهى الا بالموت.

قالت فيزا مستفسرة باهتمام :

- وهل يصاب به الحيوان فقط ؟

أضاف مانى يقول :

- كلا يا حبيبتى .ان الإنسان أيضا يصيبُه



السعار .

ثم أطرق مفكراً لحظات استطرد بعدها قائلاً :

- لكن سعارَ البشرِ على أشكالٍ لا تحددها حدود .

استوضحت فيزا قائلة :

- وما تلك الأشكال ؟

قال مانى بصوت خافت :

- ان سعارَ الحيوانِ قد ينتقل إلى الانسان لكن سعارَ الإنسان أشّد وطأة . إنه الطمعُ .

استفهمت فيزا بقولها :

- وماذا يكون الطمع أيها العزيز ؟

شرح مانى قائلاً :

- الطمع يعنى الجشع . انه رغبة جارفة تتملك الشخص فتدفعه إلى محاولة الاستزادة المستمرة من الأشياء .

- لم تتبين فيزا المعنى فقالت ببراءة :

- إننا اذا أكلنا حتى شبعنا ، وشربنا حتى ارتوينا لم ننشد بعدها إلا أن نغرد ذاكرين الله الذى أنعم علينا بما يكفينا .

قال مانى بهدوء :

- هكذا نحن لأننا نتصرف بالفطرة النقية التي أودعها البارئ جلّ وعلا في داخلنا أما الإنسان ...

ثم سكت برهة كالمأخوذ استرسل بعدها يقول :

- أما الإنسان فإنه قلما يقنع بما يكفيه . إنه دائم التطلعِ . يظل يستكثر ويستكثر في نَهَم لا ينقطع ولا يتوقف . انه يجمع ما يفوق حاجته لكنه لا يقدر على إطالة الزمن، ولا ينتصر أبداً على الموت .

قالت فيزا مستطلعة :



- وكيف يجنى سعارُ الانسان عليه ؟

أجاب مانى قائلاً :

- ان الانسان فى حُمّى سعاره يؤذى غيره، ويؤذي نفسه إلى درجة أنه قد يحطمها فى النهاية من حيث يريد أن ينفعها .

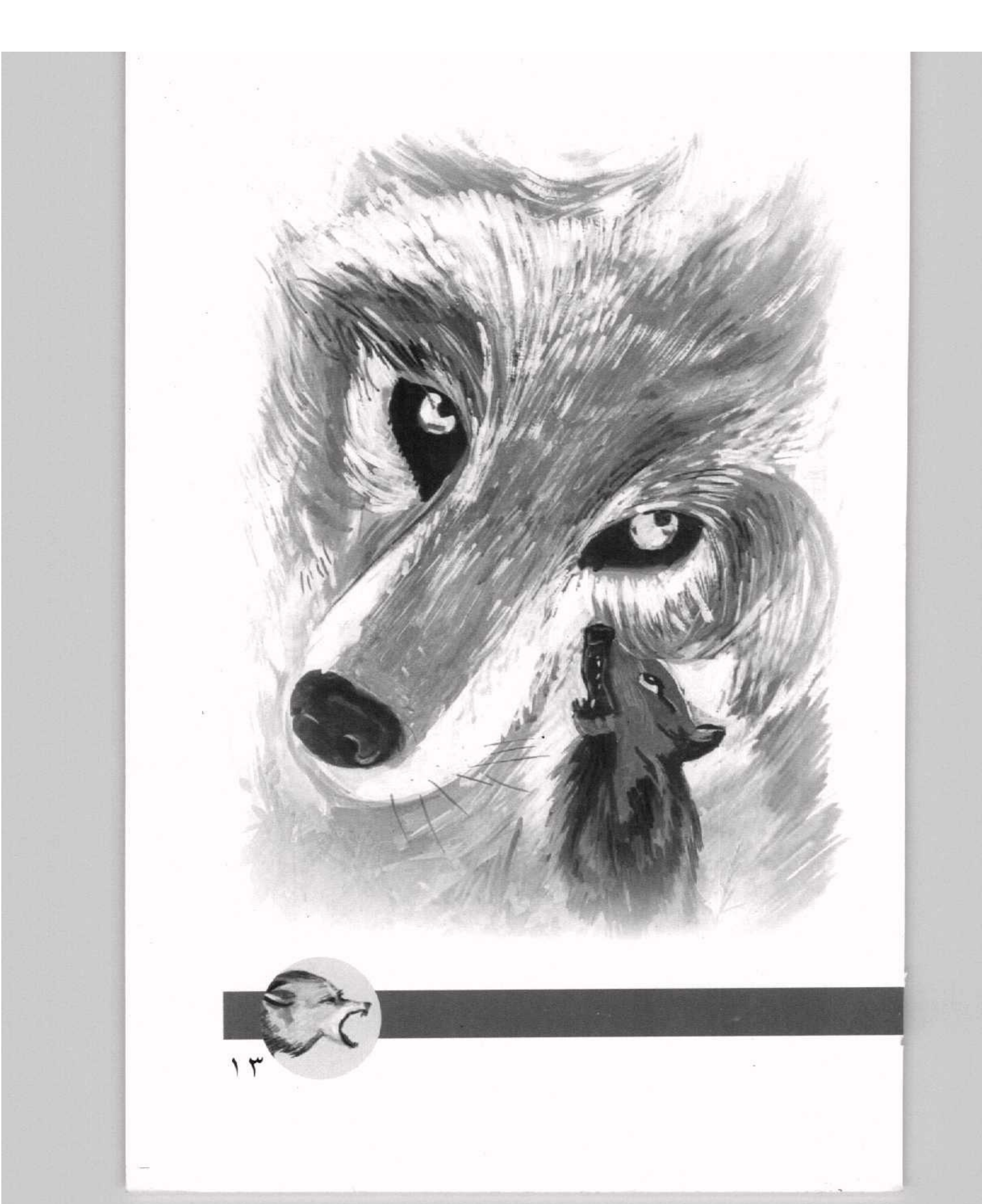
هزت فيزا رأسها وهى تقول :

- أرى أن سعار الكلاب قد يكون أخف وطأة من سعار البشر .

أمّن مانى على رأيها بقوله :

- نعم . فى حالات لا حصَر لها يكون سعار الكلب أهون من سعار الانسان. ثم فَصّل ما أجمل قائلاً :

- إن الكلب المسعور قد يعقُر واحداً أو اثنين قبل أن يَلْقَى حتفه أما الانسان المسعور فقد يودى



سعاره بألوف الألوف من بنى جنسه علاوةً على سواهم من الأجناس الأخرى ثم يبقى بعدها رافعاً لواء الرياسة والقيادة إن معارك الكلاب تسفر عن جراح أما حروب الناس فتخلّف ما لا يحصى من الأتراح .

قالت فيزا وهى تنظر إلى الأفق :

- إن الكلاب تعبث في الغابة ، وتزعج الجميع.

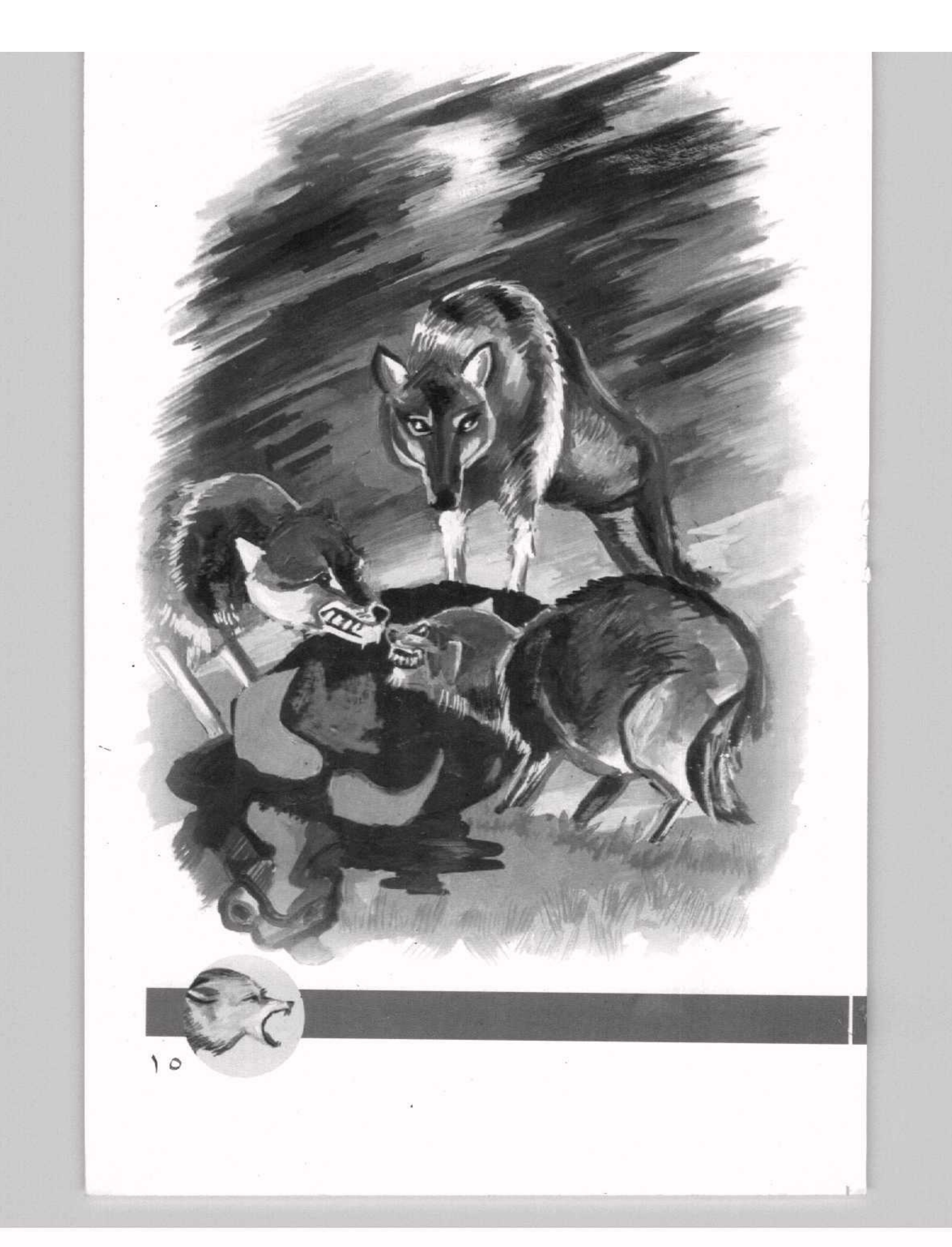
قال مانى مؤيداً :

وهى لذلك مكروهة مزدراة .

حدقت فيزا فى مانى تملأ عينيها منه وهي تقول بعاطفة جياشة:

- دعك من الكلاب ، ودعنى أغنى.

كان صوت فيزا شجياً ساحراً مؤثراً فأنصت إليها مانى مستمعاً وهى تطرب قائلة :



أنا لا أرفرف في الهواء
لا بل أحلّق في الفضاء
قلبى يطير الى النجوم
روحى تضئ من السماء

*

أعلو على كل الصغائر
لا يحتويني جور جائر
ماذا أخاف وقسمتي
حق على رب المصائر ؟

صاح مانى منتشياً بعذوبة الشدو :

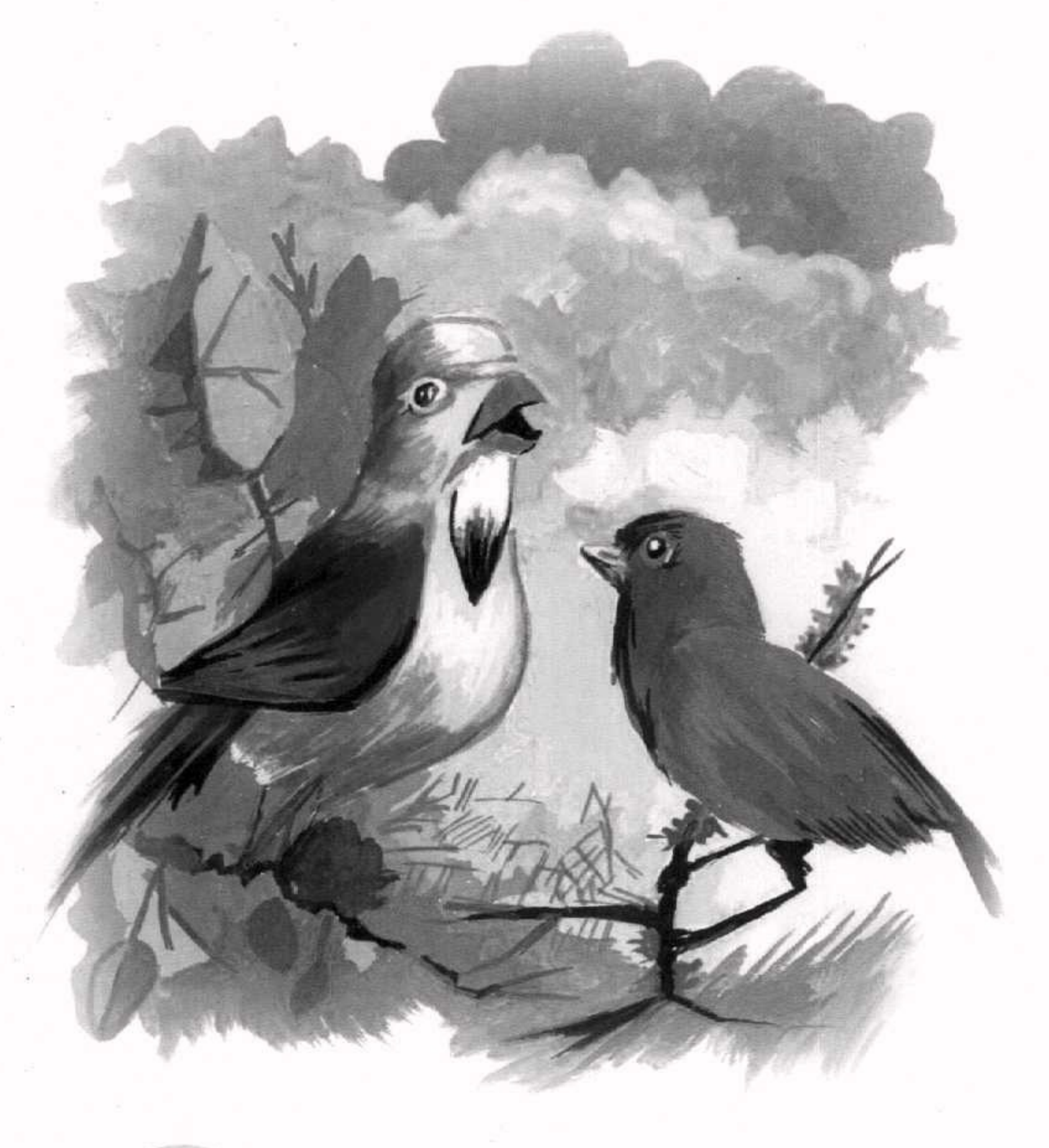
- الله الله . حقاً يا فيزا . إننا معشر العصافير ندرك الوجود كما ينبغي أن يكون . ألا ليت سائر الفصائل الأخرى تتعلم منا .

قالت فيزا متحفظة :

- لكنها قد لا تستطيع أن ترتفع بجناحين

مثلنا.

رد مانى برقة قائلا :



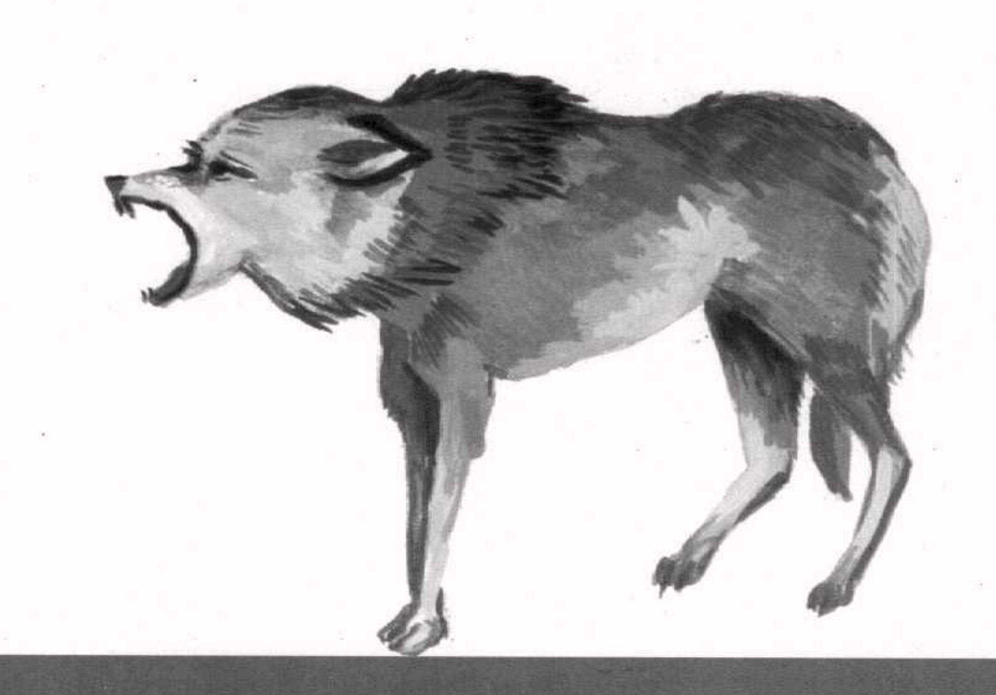


- إن العقل يسمو بالعاقل كما يرتفع الجناحان بالطائر . ولو كانت الكلاب الضالة تعى الحكمة ما كان هذا حالها .

وافقت فيزا قائلة :

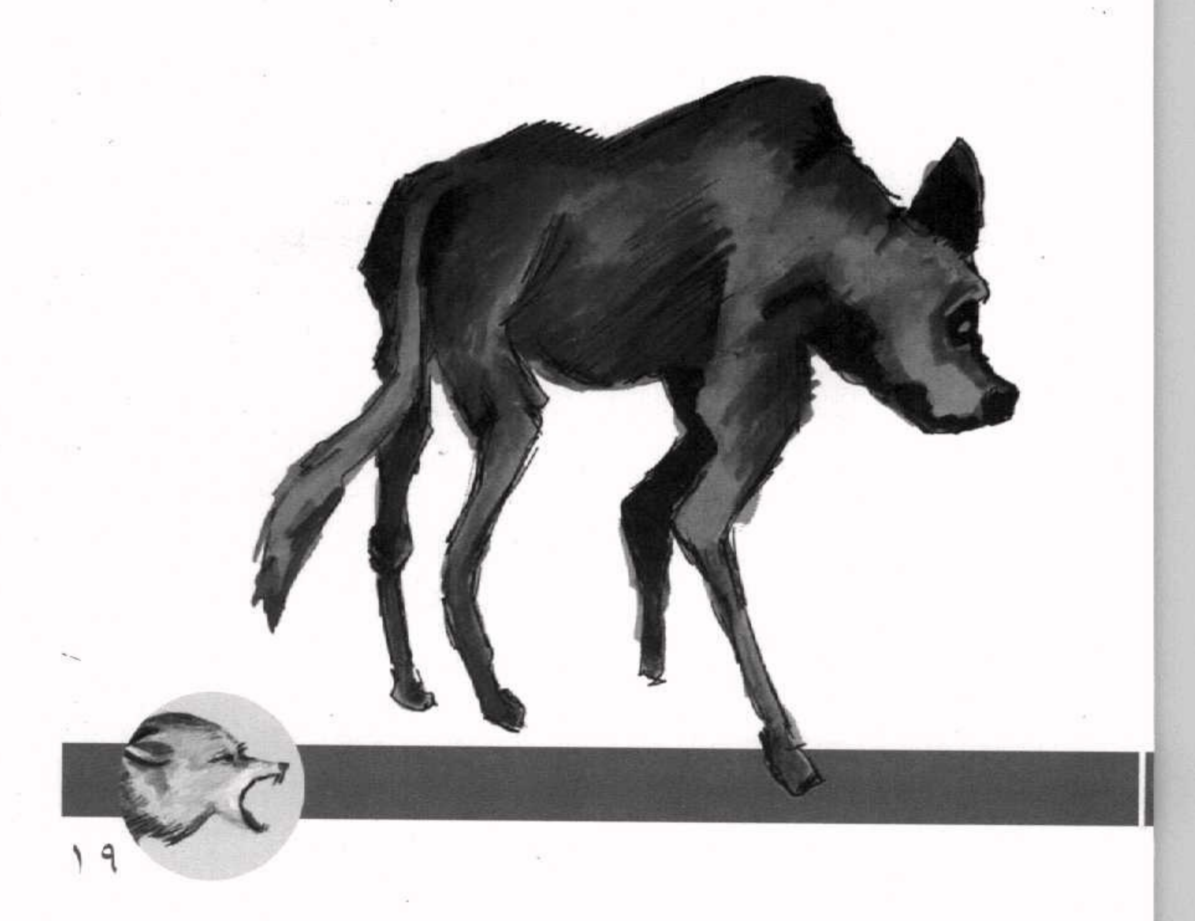
- صدقت . إن الفطرة والحكمة هما الجناحان اللذان يفتقر إليهما كل ضال من الكلاب أو من غيرها .





انفصل ثور كبير عن القطيع فجأة ، وجرى وحده في اتجاه آخر دون أية مقدمات . وقبل أن يستجلى القطيع علة انفصال الثور الجامح عنه كان الثور يعدو بأقصى ما يمكنه من سرعة كأنه يفر من حية سامة حتى سقط مندفعا فى هوة سحيقة فدق عنقه ولفظ أنفاسه الأخيرة على الفور .

كان إنقاذه مستحيلاً فتركه القطيع وانصرف إلى



حال سبيله بينما كان كلب شره يدور حول الحفرة وهو ينظر الى الثور بعينين نضاحتين ولعابه يوشك أن يسيل على جانبى رأسه .

وتَبع الكلب الأول كلب ثان .

ثم كلب ثالث فرابع فخامس فسادس .

ثم توالت شراذم الكلاب كسيل متدفق حتى اجتمع حول جيفة الثور حشد حاشد منها .

وتعالى النباح الأحمق مدوياً يصم الآذان ، وساد هرج ومرج كمحفل الغربان .

وراقبت الطيور فوق الأشجار المأدبة فقال مانى لفيزا :

- ويل هذه الكلاب . انها لن تتعلم النظام أبدا.

ردت فيزا بإشفاق قائلة :

- إن الفردية تمزقها وتوردها موارد

التهلكة.

قال مانى مشمئزاً :

- ما عليها لو التزمت بآداب الجماعة ؟

أيدته فيزا بقولها :

- إن سوء الخلق لا يزيد الطعام .

قال مانى بامتعاض :

- وحُسْنُ الخلق لا ينقصه .

قالت فيزا بنبرة آسفة :

- يبدو أن كل كلب يريد أن ينفرد باللحم الشهى وحده .

علّق مانى بقوله :

- أنانية ودناءة .

قالت فيزا مشيرة إلى المفارقة :

- على الرغم من أن معدة الكلب لا تتسع



لعُشر فخذ الثور

قال مانى متأملا:

- لقد استوطنت الكلاب الغابة لكنها لم تتحد في وحدة واحدة . لم تصل الى حقيقة الوطن .

***

اقتتلت الكلاب حول الثور الميت بعنف . ولم يكن للاقتتال أى مبرر الا فساد الطبع . كان الثور ضخماً يكفى الجميع لكن الغريزة الرعناء كانت جامحة .

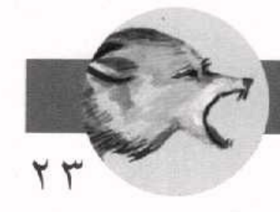
وتصاعد الغبار وسط الضجيج الهائل يعلنان معاً عن الموقعة المفتعلة . وفعلت الأنياب والمخالب فعْلها فى الأجساد المستنفرة فسالت قطرات حمراء تخضب الأرض وتشحذ التوحش .

وامتدت دائرة الاشتباكِ رويداً رويداً حتى شغلت مساحةً عريضة تغطيها الكلاب المتلاحمة . وتحول

شرر العراك الى لهيب . وقالت فيزا لمانى وهى تستنكر الموقف :

- لقد وقعت الواقعة . ما كنت أحسب الأمر يبلغ هذا المبلغ .

قال مانى بحسرة :



إنـها مأساة لا غالبَ فيها ولا مغلوب .

قالت فيزا وهى تقفز قفزةً صغيرة :

- انـها لا تقاتلُ على حق . إن القوة الغاشمة وبال على ذويها .

لحق مانى بفيزا وهو يكاد يصرخ قائلاً :

- ليست الشجاعة أن تختلق المواجهةَ . إن اختلاق المواجهة على غير مقتضى تهور بغيض.

قالت فيزا بلهجة لا تخلو من المجاملة :

-اللبيب فقط يميز ذلك .

قال ماني بغيظ :

- فإذا كان اختلاق المواجهة بين أخوة العشيرة كانت الطامة أفدح وأشنع .

ثم استكمل قائلاً عقب هنيهة من سكون المتابعة :

- فإذا كانت العشيرة مستهدفة مهددة من

خارجها كان استنزافها لطاقتها أنكى وأبشع .
قالت فيزا وهى تنتفض :

* * *

- انظر . انظر يا مانى . إن كارثةً مفزعةً تلوح قادمةً من بعيد . انظر الى الغرب .

كانت جحافل الذئاب تمُرق كالسهام في الغابة نحو الكلاب المقتتلة . وكان اقترابُ الذئاب من ميدان المعمعة نذير شؤمٍ ساحق .

كانت الذئاب تبدو كأنها قطع متفاوتة من الظلمة انسلخت عن الليل لتشوّه وجه النهار . وكانت أشكالها الكالحةِ تنطق بغل لا يطاق .

إن اقتتال الكلاب هو الذي نبَّه الذئابَ وجذبها ولكن هل جاءت الذئابُ لتفضّ اشتباك الكلاب ؟

أم أتت لتلتَهم الثوَر اللذيذ قبل أن تأتى عليه



الكلاب؟

أم أقبلت لتقضى على الكلاب حتى تنال الثور أولاً ثم تطيب لها الغابة من بعد ؟

طرحت فيزا تلك الأسئلة على مانى فقال لها بسمت الخبير :

- لقد نادت الكلاب حتوفها .

قالت فيزا في ذهول :

- يا له من درس فظيع بلا نظير .

قال مانى والكمد يعتصره :

- أزفت آزفة الكلاب ، وحلّت فجيعتها . ليتها لم تقتتل . ليتها اعتبرت قبل أن تصير عبرةً . إن الذئاب لا تفضّ الاشتباكَ ولا تنشد السلم . إن الشر لا يثمر الخير ولا يزرعه أبداً .

ثم سكت بضع ثوان قال بعدها :

- ستبدأ الذئاب بالهجومِ على الكلابِ فتنكل بها قبل أن تفرَغ للثورِ فتنهشه على الفور .

قالت فيزا بتردد :

- ألا يحتمل أن تنتصَر الكلاب ؟

أجاب مانى بثقة قائلاً :

- إن اقتتَالها يحتّم هزيمتَها . انظري إلى الذئاب . إنها تقتحم متضافرةً لا تبددها مناوشات داخلية بينها . فالذى يعادى أخاه لا يمكن أن يظفر بعدوهِ .

قالت فيزا معجبة بحديث مانى :

- حفظ الله لسانك . ما كان أحوج الكلاب الضالة إلى فطنةِ عصفور حصيف مثلك .

قال مانى في تواضع :

- ان الذى تعمى بصيرته لا يهديه بصُر غيره



. وما أظن الكلابَ تُصغى إلى عصفورٍ لتتعلم منه

. انظرى . انظرى يا فيزا .

* * *

كانت الكلاب التى أنهكها الاقتتال أضعف من أن تقاوم الذئاب العاتية . فلم تتأخر الذئاب في العبور إلى الثور على أشلاء الكلاب المتناثرة وسط بحيرةٍ قانيةٍ من دمائها المهدرة .

تمــت

